

رسالة ثانية عن الجزائر

أ . توكيفيل

ترجمة وتقديم: د. علي زيكي

جامعة الجزائر- الجزائر

نبذة مختصرة عن مؤلف هذه الرسالة:

هو الكسيس توكيفيل A. Tocquville

من مواليد 29 جويلية 1805 بمدينة فرميل Vermeilles بفرنسا.

ومات يوم 16 أفريل 1859 بمدينة كان، أثر إصابته بمرض السل.

من ارستقراطية ثقافية مقربة من الأوساط السياسية النافذة آنذاك، خاض عدة معارك انتخابية لكرسي النيابة البرلمانية.

ولع الكتابة والسياسة والسياحة، زار أميركا عدة مرات توجت بإصدار معلمه العلمي الكلاسيكي المشهور بعنوان الديمقراطية في أمريكا.

إلى جانب عدة دراسات ظرفية تتعلق بالنظام الفرنسي القديم وعلاقته بالثورة الفرنسية:

كما زار الجزائر عدة مرات حيث كلف بتحرير تقرير عن الوضعية المالية للجزائر وهي الرسالة المشهورة بعنوان رسالة ثانية عن الجزائر والتي نقدمها اليوم مترجمة إلى قراء اللغة العربية.

وقد اخترنا هذه الرسالة لأسباب كثيرة ومختلفة نلخصها فيما يلي:

1 - إن هذه الرسالة المحررة سنة 1837 والحرب بين الجزائر وفرنسا على أشدها تشكل وثيقة تاريخية هامة جدا، لا يستغني عنها أي دارس جاد يتطلع إلى دراسة هذه المرحلة الشحيحة في المعطيات والدراسات حول الجزائر.

2 - هذه الرسالة حررها توكيفيل إثر عودته من أميركا مباشرة، حيث كتب بعد ذلك مؤلفه المشهور، الديمقراطية في أميركا كما قلنا سابقا.

3 - الرسالة تشكل محاولة منهجية ميدانية لتطبيق ملاحظاته التي استقاها من مجتمع أميري والمتعلقة بأهلية هذا المجتمع أو ذاك للعيش في كنف الديمقراطية.

أ. توكيفيل؛ ترجمة وتقديم: د. علي زكي

4 - هذه الرسالة تشكل من جهة أخرى مجموعة النصائح والإرشادات المساعدة على تثبيت أركان الاستعمار الفرنسي في الجزائر لتتحوّل تلك الدراسات الميدانية للجزائر إلى نظرية اجتماعية سياسية تساعد في التوغل في روح الإنسان الجزائري وكيفية قهره بالقوة وسحره بمفاتيح أنوار الثقافة والحضارة الفرنسية.

5- إن توكيفيل المتفهم لذهنية الإنسان الجزائري يرى أن السبيل الوحيد للتواصل معه يتم عن طريق قوة السلاح، وهو إذ يؤكد قهر فرنسا للجزائر بالقوة نجده يخفف من لهجة الفرحة الحماسية ويقلل من قيمتها ما لم يتبع الانتصار العابر بالقوة، انتصار آخر أدوم وهو الانتصار بالثقافة.

وهنا نشير إلى أن توكيفيل ما برح يعتقد وقبل المفكر الأميركي هوتنجنون صاحب الكتاب المشهور صراع الحضارات، نقول يعتقد توكيفيل أن المجتمعات تتحاور بالقوة ولكن الغلبة فيها تكون للثقافة. فبالثقافة كما يقول توكيفيل نهر عقول المتوحشين الجزائريين ونخلب أنفسهم لكي يرتموا في أحضان أنوار الثقافة الفرنسية الخلاصة فيما يقول، وهذه الكيفية تتم فرنسا الجزائر بكاملها وحتى الدين الذي ظل يشكل القلعة حصينة للجزائريين فإن حدة حماسه الجياشة سرعان ما تنطفئ لا محالة مع الوقت. وإذا ما تم ذلك كما يعتقد صاحب هذه الرسالة بحزم كبير أن فرنسا لا يبقى لها من خصوم عنيديين إلا المسلحون بالإيديولوجية السياسية، وهم سيكونون لقمة صائغة في فم الأيديولوجيين الفرنسيين وعلى رأسهم توكيفيل نفسه.

- نقطة أخرى ركز عليها توكيفيل بإلحاح وهي ضرورة تبني سياسة التفرقة بين سكان الجزائر العرب والقبائل.

وفعلا استطاع الفرنسيون استمالة هذا الفريق ضد الآخر بقاعدة فرق تسد وحرّش هذا ضد ذلك مما أضعف شوكة الجزائر وسهل انتصار فرنسا على الجزائر بعد ثورات عديدة متتالية بدءًا من ثورة الأمير عبد القادر إلى ثورة الفاتح من نوفمبر 1954. ما يمكن الإشارة إليه والرسالة تحتاج إلى دراسة تفصيلية أكثر أن فرنسا المنتصرة عسكريا، قد انهزمت ثقافيا لأن انصهار العرقين العربي والفرنسي كما تمنى توكيفيل في شعب واحد لم يقع ولن يتم. كما أن فرحة انتصار فرنسا لم تكن في مستوى الانهيار المنتظر المعلن عنه من خلال الرسالة التحضيرية، التثقيفية لفرنسا وهي رسالة التي تحولت إلى كابوس لا يحتمل لا بالنسبة للجزائريين ولا للفرنسيين.

رسالة ثانية عن الجزائر

ويقول في ختام التقرير الذي قدمه البرلمان الفرنسي، باسم اللجنة العليا للبرلمان المكلفة بالمالية يقول في هذا التقرير المحرر 1847 سنة:

"إننا جعلنا المجتمع الجزائري أكثر بؤساً وشقاءً وأشد تفككاً وأوسع جهلاً وأشد توحشاً مما كان عليه قبل أن يتصل بنا (من خلال الحرب)".

وهذا التقرير نعد القارئ باللغة العربية أننا سنترجمه لاحقاً مشفوعاً بدراسة معمقة عن شخصية توكيفيل المتذبذبة ايدولوجيا والمتناقضة أخلاقياً.

متن النص المترجم

بداية افترض سيدي¹: أن إمبراطور الصين قد حشد قوة عسكرية كبيرة وتحرك بها لغزو فرنسا واستولى على مدننا وعاصمتنا؛

هب كذلك أنه أتلف، في غمرة توسّعه، السجلات العمومية قبل أن يكلف نفسه عناء الإطلاع على مضامينها، ثم بعد ذلك كله شتت صفوف الإدارات العمومية بدون أن يقف على صلاحياتها المتنوعة؛ ثم افترض معي أخيراً أن الإمبراطور قد أحكم قبضته على الموظفين العموميين كافة، بدءاً من رئيس الحكومة والنواب حتى إلى حراس الغابات.

ثم إنه وبعد أن سيطر سيطرة تامة على الطبقة الحاكمة والمسيرة للبلاد أبعدھا ونفاھا كلها إلى بعض الأماكن القصية.

إلاّ تظنون؛ سيدي، أن هذا الإمبراطور سيجد نفسه رغم قوة شوكته العسكرية وحصونه المنيعه وكنوزه الوفرة، عاجزاً عن تدبير شأن البلد المحتل هكذا؟ وأن رعاياه الجدد الذين انقطعت صلاتهم الحميمة بالقائمين على تصريف شؤونهم العامة يغدون بين عشية وضحاها عاجزين عن تسيير أنفسهم بأنفسهم؟ والحال أن الأمير الأجنبي القادم من بعيد لا يفقه شيئاً من دين ولغة وعادات وطرق تسيير إدارة البلد، وأنه بالإضافة إلى ذلك سبق أن بادر إلى إقصاء كل الذين كان بإمكانهم إفادته من كيفية تسيير شؤون البلد المحتل. فهل يمكن أن ينجح هذا الأمير في مثل هذه الظروف المتذبذبة في مهامه؟

وتفهمون سيدي وبكل وضوح، أن الأطراف الفرنسية المحتلة عسكرياً، ستخضع لقوة سلطة الحاكم الغازي بينما الأجزاء الباقية من البلاد ستغرق في فوضى عارمة. كما سترون سيدي؛ أن ما قمنا به في الجزائر هو بالذات ما افترضت أن يقوم به الإمبراطور الصيني في فرنسا.

أ. توكيفيل؛ ترجمة وتقديم: د. علي زكي

ورغم أن القرن الإفريقي لا تفصله عن فرنسا إلا مسافة 160 ميلا بحريا تقريبا، وأن ما ينشر سنوياً في أوروبا من أخبار المسافرين من كافة أنحاء العالم، مع اجتهد الناس لتعلم اللغات القديمة التي لم يعد ينطق بها أحد وكذا تعلم اللغات التي لم يتمكن أحد من استعمالها؛ رغم كل ذلك فلا أحد يتصور ويقدر مدى جهلنا العميق بخصوص كل ما يتعلق بالجزائر منذ مدة لا تتجاوز السبع سنوات.

لم تكن لدينا مثلاً أية فكرة واضحة حول مختلف الأعراق القاطنة لهذا البلد، ولا عن أعرافه، لا نعرف كلمة واحدة من لغات السكان، ولا ندري شيئاً عن جغرافية البلد: موارده، ودياناته، مدنه ومناخه.

أن كل ذلك مجهول، تماماً لدينا، حتى أنه يمكن القول بأن سمك الكون وشعاعته ظلت تفصل هذا البلد عنا.

لقد كنا نجهل كل شيء بخصوص الحرب رغم أهميتها القصوى الراهنة، فقادتنا العسكريون باتوا مثلاً يتوقعون هجمات العدو بالفروسية كفروسية ممالك مصر، في حين أن خصومنا الأتراك لم يتمرسوا أبداً إلا على سلاح المشاة.

تلك هي الظروف التي أطلقنا فيها شرار سفننا، وكان النصر حليفنا رغم أنف عدونا، فالفوز من مثل هذه الحالات يواكب الأقوى أكثر عن الأعمى بكل شيء (ممكن تصوير هذه الوضعية باستعارة كلمة المتنبي المشهورة " السيف أصدق من أنباء من الكتب".

وبعد المعركة الحاسمة عسكرياً، تبين لنا ونحن لم نستيقظ بعد من نشوة النصر، أن قهراًمة بالقوة العسكرية وحدها لا يلين جانبها للحكم السياسي.

ألا تتذكرون سيدي ما قلته لكم سابقاً حول مدى إحكام قبضة الأتراك الحديدية على كافة هيآت الحكومة المدنية والعسكرية لإيالة الجزائر؟

ففور استيلائنا على مدينة الجزائر، تسارعنا إلى الاجتماع بكافة الأتراك وبدون استثناء أحد، بدءاً من الداي نفسه إلى أبسط جندي لميليشيته، ثم نقلنا بعد ذلك هذا الحشد كله إلى الشاطئ البعيد لآسيا.

وحرصاً منا على محو كل معالم آثار سيطرة عدونا قمنا بجمع وإحراق كل الوثائق المكتوبة والسجلات الإدارية والشهادات، الأصلية منها وغيرها مما يمكن الإبقاء على ما كان قائماً قبلنا ويرسخ شأنه.

رسالة ثانية عن الجزائر

ولقد انفتح مع هذا النصر عهد جديد، مما فرض علينا تجنب كل ما من شأنه أن يربط الماضي بالحاضر ربطا عشوائيا، حتى أننا قمنا بتهديم العديد من أزقة وطرق مدينة الجزائر لنعيد بناءها وفق طريقتنا في البناء، أما الطرقات التي رأينا أن من المفيد المحافظة عليها فقد فرنسنا تسميتها.

اعتقد، والحق يقال سيدي، أن صنعة الصينيين الذين أشرت إليهم أعلاه، لم تكن بأفضل مما قمنا به هنا من الأفعال الشنيعة.

فهل يصعب التكهّن بما سينجر عن كل ذلك من تبعات؟

كان في حوزة الأتراك العديد من المنازل في مدينة الجزائر بالإضافة إلى أملاكهم العقارية على طول السهل، ولكن عقود الملكية قد أتلّفت واختفت في الطوفان العام الجارف للنظام القديم؛ فاختلطت معه الأمور على الإدارة الفرنسية، حتى باتت لا تميز بين ما تملكه أيديها وبين ما بقي ملكا شرعيا للمهزومين الأتراك. فاندفعت والحال أن عوزها عام وشديد، لتستحوذ عشوائيا على كل شيء مما تحتاج إليه، ضاربة في كل ذلك بعرض الحائط بلوائح القانون والحقوق العامة.

وكل ذلك لم يمنع حكومة الأتراك من المضي قدما تحتسب لنفسها وبكل هدوء عائدات منتج الضرائب التي كان بإمكاننا اقتطاعها مباشرة، لو كنّا على علم بمجريات الأمور. وأمام تزايد حاجيات الحكومة الفرنسية إلى مزيد من الأموال اضطرت إلى التمول من فرنسا مباشرة أو إلى ابتزاز المزيد من مال رعايانا المساكين. كل ذلك تم بطريقة أكثر تركيبة من كل الطرق والوسائل التي لم يلجأ إليها الأتراك أنفسهم.

وإذا كان جهلنا بالأمور قد حول الحكومة الفرنسية حكومة إلى حكومة خارجة عن القانون ومستبدة على مدينة الجزائر، فإن كل ذلك جعل قيام أيّ حكم خارج المدينة، مستحيلا.

فالفرنسيون قد قاموا بإبعاد مسؤولي وحتى حراس الغابات⁽²⁾ **HOUTANES** إلى آسيا ومن حيث أتوا، مع جهلهم التام حتى اسم وتشكيلة وعمل هذه الميليشية العربية التي كانت تقوم بمساعدة الشرطة في جمع الضرائب تحت حكم الأتراك، والمدعوة كما قلت سابقا بفروسية المخزن.

كذلك لم تكن لدى الفرنسيين أية فكرة عن أقسام العشائر وطبقات الصفوف في العشيرة، ومع جهلهم التام بكل ما يخص الأرستقراطية العسكرية لـ **سباهيس**.

أ . توكيفيل؛ ترجمة وتقديم: د. علي زكي

إنهم لا يدركون وبعد تفكير ملي ما إذا كان اسم المرباط يطلق على القبر⁽³⁾ أم على اسم إنسان بعينه. إن جهل الفرنسيين بكل هذه الأمور والحق يقال تام وأنهم مع ذلك لم يكلفوا أنفسهم عناء محاولة معرفتها وفهمها.

فالإدارة المحلية التي استأصلوها من جذورها فكروا في إمكان استبدالها وعلى طول المقاطعات التي نحتلها عسكرياً بالإدارة الفرنسية.

وفي هذه الحالة أرجوكم سيدي أن تتخيلوا مصير أولئك الأطفال الرهاف والعصاة معا، وهم يتخبطون وسط الملايين من إجراءات بيروقراطيتنا المعقدة ، وكيف يتحملون مكرهين التباطؤ والانتظام الصارم والدقة الكتابة لمركزيتنا الإدارية؟ ناهيك أنه لم يحتفظ ولم يبق من أفعال الحكومة التركية السابقة إلا كيفية استعمال سيف يطجان والعصا كوسيلة للتسيير البوليسي للناس. وكل ما عدا ذلك أصبح سلوكا فرنسيا؛ إن كل هذه الأمور تخص المدن والعشائر المتصلة بها. أما بقية سكان الأيالة فلم يفكر أحد في الالتفات إليهم وتدير شؤونهم، فبعد القضاء على حكومتهم لم يعط لهم شيء كبديل.

وقد يفهم حرصي الشديد على مواصلة سرد ما حدث من تاريخ إفريقيا منذ سبع سنوات ابتعاداً عن صلب الموضوع الذي رسمته لنفسه منذ البداية، ولكني في الواقع لا أطلع إلى شيء آخر سوى تقديم مساعدة القارئ على فهم مجريات الأمور.

فالعرب من سكان الجزائر الخاضعين لحكم الأتراك منذ ثلاث مائة سنة قد فقدوا ذاكرة وملكت الحكم الذاتي، كما أن أعيانهم البارزين أبعادوا عن الشأن العام بفعل حسد الطغاة وغيرتهم منهم، حتى أن المرباط قد أنزل من علياء حصانه ليمتطي الحمار.

إن حكومة الأتراك حكومة بغیضة، وهي رغم مقدرتها على فرض النظام، وتحريضها الضمني للعشائر الواحدة ضد الأخرى، ولكنها ظلت مع ذلك تحارب اللصوصية والعريضة مما يضمن سلامة الطرق العامة وأمنها؛ إلى جانب أنها باتت تشكل الرابطة الوحيدة القائمة بين هذه الجماعات السكنية المختلفة. إنها في الواقع المركز الذي تلتقي فيه وتنصب فيه كل الأشعة المتنوعة الوافدة إليها.

أما القبائل الذين عاشوا في نوع من الاستقلالية عن الأتراك، فلم يكن لسقوط هؤلاء أي أثر عليهم يذكر؛ وكان كذلك موقفهم اتجاه الحكام الجدد من الفرنسيين كموقفهم إزاء الأتراك، مع فارق مهم يتعين الإشارة إليه، وهو أن القبائل باتوا أكثر

رسالة ثانية عن الجزائر

عصيانا وتمردًا مما كانوا عليه من قبل، بسبب كرههم الطبيعي لكل من هو أجنبي عليهم، بالإضافة إلى نفورهم الشديد من المسيحيين رغم جهلهم التام بكل ما يتعلق بدين ولغت وعادات هؤلاء المسيحيين.

وقد يستسلم الناس في حياتهم العامة للغزو والاستبداد ويتحملون وصمة العار، ولكنهم في المقابل لا يطبقون الفوضى؛ فأكثر الشعوب توحشا لا تخرج أبدًا عن هذه القاعدة العامة للإنسانية.

ولما كان العرب الذين سعينا دوماً إلى الظهور عليهم وإخضاعهم، دون العما أبداً على حكمهم و تدبير شؤونهم قد انساقوا لبعض الوقت لغمرة النشوة العنيفة الناتجة عن روح الاستقلالية الفردية، فإنهم ما طفقوا يعملون وبصفة تلقائية على إعادة ترميم كل ما هدمه الفرنسيون، وفي هذا الجو ظهرت بين صفوفهم، وعلى فترات متتالية رجالات جريئة وطموحة، كما سطعت ضمن قاداتهم البارزين قرائح فذة سرعان ما استقطبت العامة من الناس، فتعلقت ببعض الأسماء اللامعة قد تحولت إلى رموز للنظام والقدوة.

لقد سبق للأتراك إبعاد الأرستقراطية الحربية والدينية عن التمرس على حمل السلاح وعن فنون إدارة الشأن العام للسكان، ولكن تلك الأرستقراطية سرعان ما انبعثت من رمادها بعد القضاء على الأتراك مباشرة لتتحول إلى أرستقراطية حاكمة ومحاربة.

ومن النتائج المباشرة والمؤكدة لاستيلائنا على مدينة الجزائر، استرجاع المرابطين لكيانهم السياسي ولدورهم المجتمع المفقود، او لم حملوا لواء محمد لمحاربة المشركين وعملوا على توظيف واستغلال كل ذلك سياسياً لإدارة شؤون أهاليهم وذويهم؟. إن هذا الحدث هو في حد ذاته حدث عظيم الشأن والفائدة يجب أن ينتبه إليه كل المهتمين بمشكل الجزائر.

ولقد ساهمنا من جهتنا في إحياء الأرستقراطية الوطنية العربية ويتعين علينا الآن أن نعرف كيف نستخدمها لتحقيق أغراضنا المختلفة.

فإلى غرب مقاطعة الجزائر مثلاً وعلى مقربة من الحدود مع المملكة المغربية استقرت فيها منذ مدة طويلة عائلة مشهورة من أشرف المرابطين وتنحدر أصولها من آل البيت لمحمد* نفسه، ويحظى اسمها باحترام ووقار جليلين في كامل الإيالة. وحينما استولى الفرنسيون على البلاد كان على رأس تلك العائلة شيخ هرم اسمه محي الدين

أ. توكيفيل؛ ترجمة وتقديم: د. علي زكي

جمع بين نبل الميلاد والحج لمكة، بالإضافة إلى معارضته الشديدة والمستمرة لانتهاكات الأتراك ومظالمهم اللاحتملة.

إن قدسيته باتت موضع تقدير وتشريف جميع الناس وكيف لا، وشهرته الواسعة بالحدق ومهارته في كل شيء لا تحتاج إلى بيان.

ومع اشتداد عسر حال العشائر المجاورة لنا نتيجة غياب أي نوع من السلطة تتكفل بوضعها المتردي، التجأت إلى محي الدين تعرض عليه أمانة تولى تدبير شؤونها. فاجتمع إليها الشيخ بكامل أطرافها على سفح سهل واسع ليخبرها بصعوبة الاستجابة لمطلبها: فكبر سنّه جعله يتطلع إلى السماء وفيها الروحيات الباقيات أكثر مما يجذبه نحو الأرض وأعراضها الزائلات. ولكن الشيخ الوقور، وإن رفض لها عرضها الرفيع الشأن وحتى لا يخيب ظنها وأملها فيه طلب منها إلا الالتفات إلى أحد أصغر أبنائه تضع بين يديه إجماع كلمتها وأمانة تصريف شؤونها؛ فأخذ يشير لهم إليه بأصبعه معددا لخصاله ومؤهلاته الكثيرة لقيادة الأمور، وأهم تلك السمات الفاضلة تقواه المبكرة وحجه إلى البقاع المقدسة، وانحداره من سلالة محمد.

ودعم الشيخ ترشيحه لابنه بعرض آيات بينات ودامغات نزلت من السماء تنتصر له في كل ذلك وتفضله هو من دون إخوانه الآخرين كما استشهد ببعض النبؤات القديمة المبشرة بقدوم محرر العرب، وكأنها قد تشخصت فيه بكل وضوح. فما كان من تلك القبائل إلا إجماع صوته ومبايعتها لابن محي الدين أميراً للمؤمنين وقائداً لها. إن ذلك الشاب المصطفى الذي لم يناهز بعد الخمسة والعشرين سنة من عمره وذي جسم نحيل وخجول معا يدعى عبد القادر.

تلك هي قصة أصل هذا القائد الفذ: إن الفوضى المتفشية قد أفرزت ودّعت حكمه الناشئ باستمرار، وأن القدرة الإلهية والأدوار التي قمنا بها نحن في هذا المجال قد ساهمت في تمكين هذا الأمير من بسط نفوذه على قسنطينة بعد وقوفه على مقاطعتي وهران والتيتري، وكل ذلك كان من شأنه أن يجعل هذا الأمير أقوى مما كان يمكن أن يكون عليه الحكم التركي من قبل.

وفيما كانت الأمور تجري هكذا في غرب الإيالة وكما وصفناها، بات الشرق يقدم مشهداً آخر مختلف تماماً.

رسالة ثانية عن الجزائر

لما استولى الفرنسيون على مدينة الجزائر كانت مقاطعة قسنطينة تحت إمرة باي¹ يدعى أحمد، والغريب في أمر هذا الباي أنه وعلى خلاف العادة كان كولوغليا أي من أب تركي ومن أم عربية.

ومن غرائب الصدف وأسعدها لهذا الباي، أن سقوط مدينة الجزائر في قبضة الفرنسيين قد ساهم في توطيد أقدامه على ربوع كامل قسنطينة وهذا بفضل مأزرة أخواله من الأتراك، ليتمكن بعد ذلك من بسط نفوذى حكمه على العشائر المجاورة بمساعدة أهل وأصدقاء عائلة أمه، هذا بالإضافة إلى أن الفوضى المنتشرة على ربوع الولاية التي أهملها الأتراك وتجاهلها الفرنسيون قد أفرزت شكلا جديدا من الحكم يضم مقاطعة قسنطينة كل ذلك مكن أحمد (باي) المعروف بشجاعته، قسوته ونشاطه الحيوي من إنشاء إمبراطورية قوية نسبيا أخذنا فيما بعد نعمل في التضييق عليها ثم بعد ذلك للقضاء عليها.

وهكذا باتت تتزاحم حاليًا على أرض الجزائر ثلاثة قوى:

1 - ففي مدينة الجزائر وعلى طول بعض نقاط الساحل تتمركز القوات الفرنسية في الغرب والجنوب، استيقظ الشعب العربي بعد ثلاث مائة سنة من الغفلة وأخذ يتحرك تحت إمرة قائد وطني.

2 - أما في الشرق حيث بقايا الحكم التركي، كما يمثله أحمد، فقد بات بمثابة نهر ما تزال مياهه تجري مع نضوب المنبع، ولكنه بدوره سيجف أو سينصب في التهر الكبير للقومية العربية.

وبين هذه القوى الثلاث، وكما لو كانت تحيط بها من جميع الجهات تبرز وتلتقي أعداد كبيرة من المجموعات السكنية العشائر المتمردة أصلا على كل نفوذ، وكأنها تسخر من كل حكم قائم تتلاعب به.

وبطبيعة الحال وفي مثل هذه الظروف يبقى البحث المطول عما كان من المفروض أن يقوم به الفرنسيون خلال عملية الغزو غير مجدي؛ لأنه وباختصار شديد

¹ هذه رسالة ثانية قد نشرت يوم 22 أوت 1837 ب la Presse de Seine et Oise وأولى هاتين الرسالتين المنشورتين ظهرت يوم 23 جوان من نفس العام وفي الجريد نفسها إنها ترسم وبصفة مختصرة تاريخ ماضي الجزائر.

(2) إسم مالي حوتان ويعني الغابة الحطب الدغل

(3) يحتفل المرابطون بضيوفهم إلى جوار قبر جدهم الأساسي، وهذا المكان بات يحمل إسم المدفون فيه. وهنا مصدر الخطأ الشائع

* ملاحظة جميع الإحالات المسبوقة بعلامة * توكيفيل نفسه (المترجم).

أ. توكيفيل؛ ترجمة وتقديم: د. علي زيكي

كان حرياً بنا وبكل بساطة أن نضع أنفسنا وفي حدود ما تسمح به قيمنا الحضارية موضع المغلوبين على أمرهم.

فعوض الإسراع إلى فرض عاداتنا الإدارية في التسيير محل عاداتهم، كان أولى بنا أن نكيّف نحن عاداتنا الإدارية بعاداتهم هم. كذلك بدل استعجال نفي الأتراك إلى السواحل الآسيوية كان من المفروض الإبقاء عليهم والاعتناء بهم عناية كبيرة.

إن أولئك الأتراك المقطوعة صلاتهم بمسؤوليتهم، والعاجزين عن تسيير أنفسهم بأنفسهم، بالإضافة إلى خوفهم الشديد من غيظ رعاياهم السابقين، وانتقامهم منهم، كل ذلك كان يمكن أن يجعل منهم وهم المنبوذون من جميع الناس وسطاء، وأصدقاءنا المخلصين مثلما كان الحال مع الكولوغليين المتقربين من العرب أكثر من توددهم للأتراك، وهم الذين فضلوا مع ذلك في أغلب الأحيان الارتقاء في أحضاننا نحن دون أحضان ذويهم.

فلو تعلمنا لغة وذهنيات وأعراف العرب واستفدنا من كيفية احترام الناس الدائم للحاكم القائم، لأمكننا كل ذلك من العودة اليسيرة والمتدرجة إلى عاداتنا نحن، وسهلت عملية فرنست البلد المحيط بنا من جميع الجهات. لكن والحال أن الأخطاء المرتكبة اليوم لا يمكن تداركها بالسرعة المطلوبة، فماذا يتعين علينا القيام به في مثل هذه الحالة؟ وما هي الآمال المعقودة الممكن تصورها ورسمها؟

لنبداً أولاً بالتميز الدقيق ضمن سكان البلد بين العرقين المذكورين سابقاً وهما القبائل والعرب. فبالنسبة للقبائل فالموقف إزاءهم واضح تماماً؛ إن غزو بلادهم أو الاستيلاء عليه مستبعد جداً؛ فجباليهم المنيع لا تزال إلى اليوم تحول دون تقدّم جيوشنا، وزيادة على ذلك فإن مزاجهم الجاف وغير المضياف لا يضمن أدنى حد من الأمن للأوروبي المعزول، والرّاغب من إقامة ملجأ هناك.

ومع ذلك فرغم انغلاق بلاد القبائل في وجوهنا فإن روحهم تبقى مفتوحة أمامنا وأن النفاذ إليها يسير.

ولقد قلت في السابق أن القبائلي إنسان إيجابي فعّال وهو أقلّ إيماناً وحماسة للدين من العربي بالإضافة إلى أنه يعمل بالتجربة ويتقيد بها في مواقفه المختلفة، فهو. إن الفرد الإنسان هو كل شيء عند القبائل، بينما المجتمع ككل لا قيمة له تقريباً وهم في ذلك أشد نفوراً في الخضوع الموحد لسلطة قوانين حاكم برز بينهم، من تبني قوانين حاكمنا نحن. فالقبائلي معروف بشغفه لتعاطي ما طاب من ملذات الدنيا

رسالة ثانية عن الجزائر

المادية الحسية، وهذا من شأنه أن يفتح لنا الأبواب على مصراعها لإمكان بل لوجوب للنفاز إليه والسيطرة عليه.

ورغم أن القبائل أقل ترحابا بنا من العرب فإنهم أقل الناس ميلا إلى إشهار السيف في وجهنا. ولئن حمل البعض منهم السلاح وحاربونا، فإن البقية الكثيرة منهم لا تتوانى في التردد على أسواقنا وامتداح الخدمات التي نقدمها لهم، والسبب في ذلك هو أنهم أدركوا المزايا المادية التي يمكن جنيتها من التعامل معنا و التقرب منا .

إن التبادل التجاري القائم بيننا وبينهم مريح لهم كثيرًا: فهم يبيعون لنا محاصيلهم مقابل اقتناء محاصيلنا المناسبة لنوع ومستوى رقيهم الحضاري.

ورغم أنهم دون المستوى الذي يمكنهم من الحصول على رقينا، فمن السهل ملاحظة مدى إعجابهم الشديد به وكيف يجدون التمتع به عذبا لينا.

وإنما يمكن أن نُسلب ألبابهم وننهر عيونهم ونهذب نفوسهم بفنوننا وليس بأسلحتنا.

فلو قامت بيننا وبين القبائل علاقات وثيقة ومسالمة بحيث لا يخشون جانبنا ولا يزعمهم طموحنا، ثم عاملناهم بوضع تشريع بسيط وآمن يحميهم جميعا فمن المؤكد أنهم سيتجنبون الحرب أكثر منا، وأن هذه الجاذبية الأخاذة التي تدفع بالمتوحش نحو المتحضر مادام مطمئنا على حريته ستأكد أكثر وستدعم بصورة أقوى. وعندئذ فقط ستتغير مواقف وأعراف القبائل بدون وعي منهم، وأن الحواجز الموصدة إلى أبواب بلادهم في وجوهنا ستساقط من تلقاء نفسها

أما ما يتعين القيام به إزاء العرب فالأمر أكثر تعقيدًا وصعوبة.

فالعرب لا تستقر أقدامهم في مكان واحد معين، وأن روحهم بالتالي أشد حراكا من مساكنهم. فهم بتمسكهم الشديد بحريتهم يفضلون الاطمئنان إلى سلطة حاكم قوي يتطلّلون به مع بقائهم متطلعين إلى تشكيل أمة كبيرة شامخة.

ثم إن اندفاعهم الظاهر نحو الأمور الحسية لا ينسبهم أبداً من السعي وراء المتع الروحية اللامادية لكمال شأنها في نظرهم. وهم في كل لحظة تأخذهم خيالاتهم وتحلّق بهم صوب بعض المثل الخيرة العليا وتهديهم إليها لتحقيقها.

إذن فمع القبائل يظل الاهتمام يدور حول مسائل العدل المدني والتجاري، بينما تتوجه الانشغالات مع العرب نحو المسائل السياسية والدينية.

أ. توكيفيل؛ ترجمة وتقديم: د. علي زكي

ولهذا السبب فإنه يتعين بل يتوجب علينا القيام به وللحين، بالتسيير شؤون عدد من العشائر العربية بصفة مباشرة بينما يبقى العدد الأكبر منها مما يمكن الاكتفاء في الظرف الراهن ببسط نفوذ غير مباشر عليها.

من المعلوم أن حكم الأتراك الذي دام ثلاث مائة سنة لم يشمل العشائر البعيدة عن المدن إلا بصفة محدودة، ولكنهم كانوا مسلمين مثل العرب، وتجمعهم عادات مشتركة، ونجحوا في إقصاء الأرستقراطية العربية الدينية عن الشأن العام. أما نحن والحال أننا لا نشبه الأتراك في شيء، ونعدم الاعتبار التي يمكن أن تقرّبنا من الأهالي الجزائريين، بالإضافة إلى عقبات أخرى كأداء تواجدها، فإن أملنا في فرض قوة السلطة على هذه القبائل شبيهة بالتي فرضها الأتراك عليها، غير محتمل تماما؛ بل وحتى الاقتراب منها يغدو متعذرا. إذن وفي مثل هذه الحالة فإن تفوقنا العسكري الكاسح في هذا المجال يصبح غير مجدي تقريبا؛ إذ قد تضمن شوكتنا العسكرية نصرا مؤكدا حقا، ولكن فرض قوة قوانيننا على السكان الرّحل المتوغلين حسب الظروف إلى عمق الصحراء يبقى شيئا آخر، بحيث أنهم لو أهملونا وسط الصحراء ونحن نتعقبهم، فإننا سنعدم أسباب العيش ولا نقوى على البقاء.

يتعين علينا إذن أن نوجه كامل عنايتنا الحالية إلى توفير أسباب التعايش السلمي مع أولئك العرب الذين لم نتمكن بعد من السيطرة عليهم، وأن ننظمهم بطريقة لا تشكل خطرا على نفس نجاحاتنا المستقبلية.

إن فوضى العرب قد أساءت إليهم بقدر ما كانت مضرّة لنا نحن كذلك، فما دمنا نعدم الإرادة والسلطة الكفيلة بإخضاعهم بقوة سلاحنا، فلا يبقى لنا من أمل التأثير فيهم وعلى المدى البعيد، إلا بواسطة أفكارنا وفنوننا، وهذا ما لا يتأتى إلا بتوفير شروط استتباب الأمن والطمأنينة والنظام بين صفوفهم.

وزيادة على ذلك فإن الفوضى التي تدفع كل قبيلة ضد أخرى تجعلها تتهجم علينا باستمرار وتعزى حدودنا عن الأمن والطمأنينة.

فمن مصلحتنا إذن إعادة تشكيل حكومة لهؤلاء السكان، ولا يكون ذلك الأمر مستبعدا إذا نجحنا في تشكيل حكومة خاضعة لنا جزئيا.

والحال أن شيخ الحكم قد انفلت اليوم من الأيدي القابضة له منذ ثلاثة قرون، فإنه لم يعد لأحد الحق المطلق ولا من أمل محتمل، وعلى المدى البعيد، في إرساء سلطة شرعية لا ينازعه فيها أحد .

رسالة ثانية عن الجزائر

إن كل القوى القادمة للاستقرار في إفريقيا وفي مثل هذه الظروف والأحوال ستكون مهزوزة الأسس، فلو قدمنا تأييدا وسندا قويا عادلا ودائما فإن جميع الحكام الجدد سيلتمسونه ويستندون إليه باستمرار مما يجعلهم خاضعين وتابعين لنا جزئيا على الأقل.

يجب علينا أن نتطلع إلى جعل هؤلاء العرب المستقلين يحتملون تدخلنا في شؤونهم الداخلية وأن يألفوا معاشرتنا. فمن الطبيعي جدا أن نتصور إذن شعبا قويا متحضرا كشعبنا يمارس تأثيرا لا يكاد يرد على هذه المجموعات السكانية شبه متوحشة وأن نحملها على الانضمام إليه يتأتى بمجرد إقامة علاقات دائمة معها.

ولكن إذا كان من مصلحتنا تشكيل حكومة لعرب الإيالة، فمن المفيد الجلي لنا أ، لا نسمح بقيام حاكم واحد . فتفرد الحاكم الواحد بالسلطة مما يعرض مصالحنا للخطر؛ فمن مصلحتنا المؤكدة أن نعمل على تجنب العرب من الاستسلام للفوضى مع حرصنا الشديد في المقابل على عدم المساهمة في توحيدهم ووقوفهم جميعا صفا واحدا ضدنا. ومن هذا المنظور بالذات يمكن القول بأن الاتفاقية الأخيرة مع عبد القادر والحملة العسكرية المبرمجة على قسنطينة كفيلة كلها بإثارة العديد من المخاوف.

فهل من شيء عزيز علينا أكثر من إقامة علاقات تضبط قوة وتحدد سلطة هذا الأمير الجديد المبسوطة منذ مدة على مقاطعة وهران زيادة على أن الاتفاقية تتنازل له على حكومة البايك لتتيري.

كل هذا يدفعني إلى الاعتقاد الجازم بأن الحملة الجارية تحضيرها اليوم ستكون لها من النتائج النهائية تسليم الجزء الأكبر من منطقة قسنطينة للأمير عبد القادر.

فليتأكد الجميع أن درجة القوة التي بلغها الأمير ستدفع بجميع السكان من العرب الباقيين بدون قائد يحكمهم للالتحاق به بصفة تلقائية. وعليه فإن مجرد التفكير في القضاء أو زعزعة حكم هذا الأمير هي حماقة وتهور؛ وفي مثل هذه الحالة فأولى بنا التفكير في استثارة الذين لم يظهروا بعد على ساحة العمل السياسي والعسكري، والجال أن تجربتنا في قسنطينة إذا ما كللت بالنجاح وهذا هو المحتمل الأقوى، فإنها لن تقضى إلا إلى القضاء على أحمد مع عدم تعويضه في نفس الوقت بأحد: أي أننا سنطيح بالكولوغلي مثلا ولا نقوى مع ذلك على استخلافه أو تعيين خليفة عربي له يقوم مقامه.

فنصرنا سيدفع إذن بالعشائر الخاضعة لأحمد إلى الاستقلال، ولكنها سرعان ما ستتنازل عنه وتقدمه لقمة صائغة للأمير المترصد بها عن قرب. وفي جميع الأحوال فإننا سنخلق الفوضى وهذه الفوضى، ستدعم قوة حكم عبد القادر.

أ. توكيفيل؛ ترجمة وتقديم: د. علي زكي

هذا على الأقل كل ما يمكن التكهّن به ونحن نتابع الأمور عن بعد ونجهل كذلك لتفاصيل الأحداث الجارية. لكن ورغم ذلك فإن ما يمكن التأكيد عليه حالياً وبلا أدنى شك ممكن، هو أنه لا يمكن لنا بأي حال من الأحوال أن نسمح بمبايعة عشائر الإيالة بقائد واحد بعينه. فقيام حاكمين اثنين على الأقل يبقى في مثل هذه الوضعية أقل ما يمكن أن نسمح به.

إن أمننا الحاضر واهتمامنا البالغ بمستقبلنا يفرض علينا العمل على قيام ثلاثة أو أربعة حكام على الأقل. فبغض النظر عن العشائر التي يكون من مصلحتنا الحالية أن نكتفي بممارسة نفوذ غير مباشر عليها، فسيبقى مع ذلك قسم معتبر من البلاد مما يحتم علينا أمننا وكذا شرفنا للعمل على وضعه تحت سيطرتنا المباشرة وبدون وسطاء أيا كانوا. إن تقاسم السكان الفرنسيين والسكان العرب لنفس الأرض والمكان الواحد يفرض علينا جميعاً واجب العمل على توفير أسباب التعايش السلمي بين الجميع. فالصعوبة تبدو كبيرة، ولكني من جهتي أبعد ما أكون عن اعتبارها كصعوبة غير قابلة للتدليل.

ولا أزعم سيدي، أن يكون بإمكانني الدخول معكم هنا في ذكر تفاصيل الوسائل التي يتعين رصدها لتحقيق هذا الهدف. ولكني سأكتفي مع ذلك بالإشارة العامة إلى ما أراه الشرط الأساسي لهذا النجاح.

من البديهي بالنسبة إلي، أننا لن نوفق أبداً في مهمتنا هذه إذا ما عملنا على رعايانا الجدد في الجزائر لنفس أنماط الإدارة الفرنسية. فالإصرار على التجديد الكلي في المجال السياسي ينذر دائماً بسوء العاقبة: فجانبنا أقوى في شوكته وأهمر في أنواره من العرب، وهذا شيء معروف؛ وفي هذه الحالة وإذا كان الأمر كذلك أفليس حرياً بنا أن نبادر إلى الأخذ الحذر ببعض أحكام وأعراف العرب. ففي الجزائر وفي أي مكان آخر، فإن القضية الكبرى، القائمة في وجه أية حكومة كانت، لا تتمثل في اختلاق المزيد من الجديد، بقدر ما تكون في توظيف ما هو قائم فعلاً.

استقر العرب وعاشوا في اليمن منذ ألفي سنة في ظل النظام العشائري المميز لهم. وفي خروجهم للتوسع اجتازوا إفريقيا بكاملها بلغوا إسبانيا فاحتلّوها بنظامهم العشائري، ولم يفتأوا يعيشون كذلك إلى اليوم.

فالنظام العشائري من حيث هو أقدم وأصلب نظم المؤسسات الإنسانية وأثبتها مكاناً وزماناً، يظل من النظم اللصيقة بالذهنية العربية، بحيث أن تغييره المتسرع

رسالة ثانية عن الجزائر

سيشوش، وعلى المدى البعيد على مشاعرهم ويزعزع أفكارهم ومعتقداتهم. فما دام العرب يعينون حكامهم بعاداتهم الخاصة بهم، فليحتفظ لهم بهذه الخاصية المميزة لهم. لهم أرستقراطية عسكرية ودينية، لا يتعين علينا العمل للقضاء عليها، فذلك غير مجدي تماما، بل ننظر في كيفية احتوائها وتسخيرها لخدمة مصالحنا كما كان يفعل الأتراك من قبل.

فالمطلوب إذن ليس فقط الاستفادة من العادات السياسية للعرب، بل إن من الضروري أن لا نعدل من قواعد قانونهم المدني إلا بصفة تدريجية. والسبب في ذلك كما تعلمون سيدي، أن القانون المدني عند المسلمين و(القانون) الديني متطابقة تماما وشيء واحد في الوقت نفسه.

يتعين علينا أن نلتزم جانب الحذر الشديد من الانسياق في الجزائر وراء نزوعنا القوي إلى التوحيد المرضي لكل شيء ثم القول بعد ذلك، أنا من العبث القاتل أن نخضع كائنات متباينة لتشريع واحد لنفسه

فلما سقطت إمبراطورية الغرب لاحظ الجميع أن البرابرة ظلوا خاضعين لقوانينهم الخاصة وفي نفس الوقت باتت القوانين الرومانية مطبقة على الرومانيين وحدهم ..

فلو اقتدينا بهذا المثال التاريخي الحي لأمكننا اجتياز المرحلة الانتقالية القائمة وبسلام، ريثما يتمكن شعبان مختلفان في الحضارة من الانصهار في الكل الواحد. ولما يستقر الفرنسيون والعرب في مقاطعة إدارية واحدة، فمن المفيد البت بضرورة تطبيق لكل شعب القانون الذي يفهمه وتعلم الامتثال له واحترامه. أن يترأس العرقان المختلفان حاكم سياسي واحد، ولو بقي كل ما عدا ذلك مختلفا ولمدة طويلة فأمر وارد طالما أن الوحدة بين الشعبين آتية لا محالة ومن تلقاء نفسها.

ومع ذلك فمن مصلحة الجميع أن يأتي التشريع القانوني المطبق على الفرنسيين بإفريقيا مختلفا عن القانون الجاري العمل به بفرنسا.

إن الشعب الناشئ لا يقوى أبدا على تحمّل نفس المضايقات الإدارية المعقدة كما هو الحال بالنسبة للشعب القديم المتعود عليها، بحيث إن نفس الإجراءات البطيئة والمتعددة التي قد تضمن أمن الشعب القديم قد تعرقل سير الشعب الجديد بل وقد تحول دون تكوّنه وميلاده.

أ. توكيفيل؛ ترجمة وتقديم: د. علي زكي

نحن في حاجة ماسة في إفريقيا كما في فرنسا، بل وبصفة أخص في فرنسا إلى المزيد من الضمانات الأساسية للإنسان الذي يعيش في المجتمع، فليس هناك من بلد يتطلب إرساء قواعد الحرية الفردية واحترام الملكية وضمان جميع الحقوق، مثلما هو مطلوب في المستعمرة (بفتح الميم).

ولكن هذه المستعمرة من جهة أخرى، وعلى خلاف إدارة المقاطعات القارية للإمبراطورية، تحتاج إلى إدارة أبسط في التسيير وأشد حزمًا في القرار وأكثر استقلالية عن السلطة المركزية. لذا يجب أن نحافظ في الجزائر؛ وبعبارة كبيرة على الجوهر السياسي لدولتنا؛ كالاهتمام بجوهر الأمور دون شكليتها، وكذا بإظهار المزيد من الاحترام لروح القوانين دون تقييد بحرفيتها النصية. إن الذين زاروا الجزائر يدّعون أن عكس هذا الكلام هو الجاري تطبيقه في الميدان؛ كما هو الشأن بتقييد الإدارة في الجزائر تقييدا شديدا بأبسط القوانين الإدارية الجارية في الوطن الأم مع تجاهلها في معظم الأحيان للمبادئ الكبرى التي تركز عليها قوانيننا. ومن طبيعة ونتائج مثل هذا التصرف أنه سيضاعف من عدد الموظفين العموميين، وسيكون ذلك على حساب المعمرين.

اعتقد سيدي، وأنا أشرف على نهاية هذه الرسالة المطولة، إنكم تنوون مساءلتي بخصوص آمالي الشخصية المعقودة رغم كل شيء على مصير ومستقبل مستعمرتنا الجديدة هذه.

إنني أرى هذا المستقبل ماثلا أمامنا وفي متناول أيدينا، وأصارحكم القول المخلص بأننا إذا حشدنا المزيد من الحزم مع المثابرة والمهارة والعدالة، وراعينا عامل الزمان، فإن الشك لا يداخلني أبداً في إمكان إقامة نصب تذكاري في قرن إفريقيا على شرف ومجد أمتنا.

لقد قلت لكم سيدي ومنذ البداية أن العرب كانوا رعاة وفلاحين معا، وأنهم رغم امتلاكهم جميع أجزاء الأرض إلا أنهم لا يفلحون منها إلا الجزء المحدود.

فالسكان العرب هم إذن موزعين جدا وأنهم يمتلكون من الأراضي الشاسعة ما لا يقوون على زراعتها في كل سنة. والنتيجة هي أنهم يميلون إلى بيع أراضيهم وبأثمان بخسة. وسيكون في مثل هذه الحالة بإمكان السكان الأجانب الاستقرار هنا وبجانب العرب دون أي إشكال أو خوف.

ومن هنا ستفهمون سيدي؛ كيف سيتيسر للفرنسيين الأكثر ثراء وأكثر تصنعاً، دون العرب؛ امتلاك أجزاء واسعة من الأراضي، وكيف سيفدون وبأعداد متزايدة ليتوغلون من خلالها إلى نفوس العشائر المحيطة بهم بطريقة سلمية وأمنة، فالجميع

رسالة ثانية عن الجزائر

يتطلع ويرتقب ذلكم اليوم القريب والمحتمل جدا ومن خلاله سيدخل العراق ويتصالبان هكذا وعلى طول عدة نقاط من الإيالة.

ولكن وضع الفرنسيين بجانب العرب لا يتحقق بالصورة المطلوبة إذا لم يقيموا معهم صلات وثيقة ودية ودائمة ستساهم في تشكيل شعب واحد من العرقين. إن كلّ ما تعلّمته من الجزائر يحملني على الاعتقاد بأن هذا الحدث ليس أبدا بالوهمية السطحية التي يتصورها البعض.

فمعظم العرب ما يزالون محتفظين بتعاليم دين محمد؛ ومع ذلك فمن السهل القول بأن حدة المعتقدات الدينية المنتشرة في هذا الجزء من الإقليم المسلم، وكما في غيره من الجهات، ما فتئت تضر وتتناقص باستمرار وأنها لا تقوى على صدّ الناس عن اهتمامهم بشؤون العالم الدنيوية.

وعلى الرغم من الدور الهام الذي لعبه الدين في إشعال نار الحروب المعلنة ضدنا لحد اليوم في إفريقيا؛ وأن هذا الدين ظل يشكل الذريعة التي ركبها المرابطون لحمل السلاح من جديد في وجهنا؛ فإنه يمكن القول مع ذلك بأن دور الدين في هذه الحروب ظل ثانويا. ولقد حوربنا بصفتنا أجنب وغزاة أكثر من كوننا مسيحيين. كما أن طموحات القادة السياسية قد سلّحت أيدي الناس ضدنا أكثر من إيمان القبائل التي حاربتنا.

فكلما فشلت روح الوطنية والطموح السياسي في تجنيد الناس ضدنا تأتي التجربة لتؤكد بأن الدين لم يمنعهم أبدا من التعامل معنا حتى أصبحوا أشد مساعدينا إخلاصا حماسة حتى أن الحروب التي أشعلوها في وجه إخوانهم في الدين لهي أشد من تلك التي حاربونا بها

إذن فمن الجائز القول بأننا إذا برهنا أكثر فأكثر وباستمرار بأن الإسلام الخاضع لسيطرتنا أو المجاور لنا مباشرة ليس أبداً في خطر، فإن مصير المشاعر والأهواء الدينية سيكون الانطفاء والضمور لا محالة ؛ بحيث لا يبقى لنا في إفريقيا من أعداء نواجههم إلا الخصوم السياسيون.

كذلك يكون من الخطأ الفادح الاعتقاد بأن عادات العرب المدنية تمنعهم من العيش المشترك معنا.

لقد عاش العرب في إسبانيا كحضرين ومزارعين معا؛ وكذلك يوجد في ضواحي المدن الجزائرية عدد كبير ممن يتعاط فنون الزراعة وبكل جدية فالعرب إذن ليسوا بالضرورة والطبيعة رعاة لا غير.

أ. توكيفيل؛ ترجمة وتقديم: د. علي زكي

صحيح حقا، إننا بقدر ما نتوغل في الصحراء نلاحظ اختفاء وغياب البيوت لتستبدل بالخيام، وهذا لسبب بسيط وهو أن الأمن العام يتناقص مع الابتعاد عن السواحل إلى جانب أن الشعب المتمسك بحريته وعلى حياته وممتلكاته، تغدو له حياة الترحال أفضل من الاستقرار في مكان غير آمن دائماً.

فالعرب في نظري يفضلون التيهان والسير في الهواء الطلق أكثر من التعرض لطغيان السيد المالك واستبداده.

فكل الدلائل تشير إلي، وتقول بأن العرب لو كان لهم أن يعيشوا أحراراً مكرّمين وحضريين فإنهم لن يترددوا في العيش المستقر الحضاري...

ولا أشك كذلك بأنهم سرعان ما يتبنّون نمط عيشنا والمضي وفقه إذا ما وضّحنا لهم باستمرار فوائد ذلك.

ونقول في الأخير، بأن لا شيء في الواقع القائم الآن والمعروف مما يؤكد تنافر المزاج بيننا وبين العرب؛ بل إنّي أرى عكس ذلك تماما، وهو أن تمازج العرقين يتم بسهولة أكثر وقت السلم، وإنهما يتقاربان أكثر بقدر ما يتعارفان إلى بعضهما البعض.

لقد بات الفرنسيون اليوم يكوّنون انطباعات إيجابية وسلمية عن سكان الجزائر: إنهم يتعلمون لغتهم، يتأقلمون مع عاداتهم وأعرافهم، حتى أن البعض من الفرنسيين يظهرون حماسة لا معقولة إزاء عادات العرب، إلى جانب أن جيلا كاملا من شباب عرب مدينة الجزائر أصبح يتقن لغتنا ومال ولو جزئيا لعاداتنا نحن.

ولما قامت بعض العشائر العدو بهجمات اللصوصية على ضاحية مدينة الجزائر، واستنفر الناس لمواجهة، لاحظنا تكوّن حرس وطني ضمّ في صفوفه عربا وفرنسيين، وعملوا معا في نفس الوحدات القتالية ليشتركوا في تقاسم عين المتاعب والمخاطر.

فلا شيء إذن يسوّغ قول القائل بأن الدهر نفسه لا يقوى على دمج العرقين. فإذا كان الله من جهته لا يمنع ذلك، فإن سفه الناس هو وحده الحائل الممكن دون ذلك.

فلا تقنطن إذن سيدي من المستقبل، ولا تيأسن مما هو آت. فلا تجعلنّ التضحيات العابرة تعترض سبيلنا وتنسف جهودنا والحال أن مشروعا ضخما أخذ يلوح في الأفق يستنفر المجهودات الدؤوبة لتحقيقه. وليس ذلك بعزيز علينا.